أبحاث الملتقى

توظيف التاريخ في الرواية الجزائرية:
رواية "رمل الماية" لواسيني الأعرج أنموذجا

أ. إبراهيم بن طيبة
جامعة الجيلالي بونعامة– خميس مليانة

مُلخص البحث

[تسعى هذه المداخلة المعنونة بـ: توظيف التاريخ في رواية "رمل الماية" لواسيني الأعرج إلى تتبع توظيف التاريخ بسرد أحداث فاجعة الليلة السابعة بعد الألف (أحداث السقوط في التاريخ العربي) من قبل الروائي، هذه الأخيرة التي تبدأ من فترة حكم الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتنتهي بالعصر الحديث الذي يشهد تسلط "بني كلبون" – مثلما أطلق الروائي عليهم – على البلاد. وتعرض رواية "رمل الماية" إجهاض المحاولات الثورية التي قام بها أبو ذر الغفاري وابن رشد، بالإضافة إلى سرد أحداث سقوط غرناطة، والتعذيب الذي تعرض له الناس على يد محاكم التفتيش في الأندلس بعد سقوط الحكم العربي. وقد وظفت رواية "رمل الماية" أحداث السقوط في التاريخ العربي، لتؤكد أن الحاضر المعيش هو جملكية "نوميديا أمدوكال" وامتداد للتاريخ العربي في جانبه المظلم.]

مقدمة:

عمد بعض الروائيين العرب إلى تصدير رواياتهم بنصوص تاريخية مقتبسة من كتب المؤرخين، ومن هؤلاء الروائيين نذكر: **إبراهيم الكوني** الذي صدّر روايته "التبر" بنصين، أحدهما ديني، والثاني تاريخي مأخوذ من كتاب "مملكة مالي" **لابن فضل الله العمري**، ومن الواضح أن النص التاريخي الموظف يلتقي وعنوان الرواية، وكأنه تمهيد لموضوع الرواية وأحداثها. أما الروائي **سالم بن حميش** فقد صدّر روايته "مجنون الحكم" بجملة من أقوال المؤرخين، وكلها تصف **الحاكم بأمر الله**، الخليفة الفاطمي، الذي حكم مصر في القرن

الرابع الهجري. أما رواية "عرس بغل" **للطاهر وطار** فتطرح مقولة تاريخية رئيسة من خلال وعي الحاج كيان، وعلى هذا الأساس تشبه **خولة العنابية** صاحبة الماخور أخت **سيف الدولة الحمداني** ، وتشبه "خاتم" الهزي، أي فتوة المتنبي التي صاغها على مبدأ القوة.

– الرواية التاريخية:

يدل مصطلح الرواية التاريخية على أن التاريخ هنا صفة للرواية، تتحدد في ضوئه معالم الموصوف، أي أن الرواية تفقد خصائصها لصالح التاريخ الذي يهيمن بخصائصه على الرواية، ويطبعها بطابعه، على مستوى الشخصيات، ومادة السرد، والبيئة، وطريقة السرد. ولتوضيح الفروق بين توظيف التاريخ في الرواية التاريخية والرواية المعاصرة نجري مقارنة بين رواية **جرجي زيدان** "الحجاج بن يوسف"،[1] ورواية **جمال الغيطاني** "الزيني بركات".[2]

تتميز الشخصية في الرواية التاريخية بأنها لا تحيلُ إلا على ذاتها، أي أنها تبقى أسيرة تاريخيتها، وتظل بمعزل عن مشاركة القارئ الذي لا يجد قاسماً مشتركاً بينه وبينها. إن أبطال رواية "الحجاج بن يوسف" لجرجي زيدان: **عبد الله بن الزبير**، و**عبد الملك بن مروان**، و**الحجاج بن يوسف الثقفي**، و**سكينة بنت الحسين**... شخصيات تاريخية لا تحيل إلا على ذاتها، وتبقى أسيرة الزمن الذي وُجدت فيه، فهي لا تتطور بتطور الأحداث، لأنها مكتملة النمو، لا تتبدل ولا تتغير، في مقابل شخصية "الزيني بركات" في رواية جمال الغيطاني فهي شخصية تاريخية، نجدها في تاريخ **ابن إياس** "بدائع الزهور في وقائع الدهور"[3] باسم **بركات بن موسى**، وهو المحتسب في فترة حكم السلطان **قونصوه الغوري** لمصر، وهي شخصية مقربة من السلطان، ومخلصة له. وقد حافظ السرد الروائي على السمة الرئيسة المميزة لشخصية الزيني بركات التاريخية، وهي قيامه بوظيفة الحسبة، ولكنه لم يلتزم الدقة في تقديمها، أي لم ينسخها، بل بنى عليها شخصية جديدة، تستمد من الماضي، ثم تقطع صلتها به. إن شخصية الزيني بركات لا تبقى أسيرة مرجعيتها التاريخية، بل تتصرف بالطريقة التي يمليها عليها السرد الروائي، ومنطق الأحداث. وهكذا، تتحول الشخصية التاريخية إلى شخصية روائية، وتخضع لمنطق جديد، يمليه عليها الخطاب الروائي.

إذا كانت الشخصية التاريخية لا تحيل إلا على ذاتها، فإن شخصية الزيني بركات

تختزل، من خلال تصرفاتها، وعلاقاتها، كل النماذج البشرية التي تمارس التسلط ضد فئات الشعب، وإذا كانت كتب التاريخ قد سكتت عن توضيح طبيعة العلاقة بين الزيني بركات وعامة الناس، فإن السرد الروائي سعى جاهداً لتوضيح هذه العلاقة المبنية على ثنائية الظاهر والباطن، والقول والفعل، والمتمثلة بإظهار الزهد والورع والتقوى والتواضع، وحب العدل، وإبطان الشر، وحب الظلم، والتسلط، وممارسة العنف ضد الناس، لإرضاء السلطان، وتنفيذ تعليماته، وسياسته القمعية الاستبدادية.[4]

تستمد الرواية التاريخية خصائصها من الخطاب الذي يراعي التسلسل الزمني في عرض الأحداث، فالأحداث في رواية "الحجاج بن يوسف" تسير في خط تصاعدي، له بداية ونهاية. أما رواية "الزيني بركات" – على الرغم من أنها تلتقي والأصل التاريخي، وهو "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، في ذكر الأعوام والسنين التي وقعت فيها الأحداث– فإنها لا تتقيد بالتسلسل الزمني، بل تعمد إلى تحطيمه، والخروج عليه، فثمة فواصل زمنية بين الأحداث، بالإضافة إلى البطء، والسرعة، والتسريع.[5] وإذا كان التاريخ تقدم إلى الأمام، فإنه في رواية "الزيني بركات" "تقدم يحمل في طياته بعض التقاطعات مع الماضي".[6] إن مدخل الأحداث يبدأ بسنة 922هـ ثم تتتابع في خط تصاعدي، وتعود من جديد إلى عام 922هـ.

إذا عاينا الخطاب الروائي في رواية "الحجاج بن يوسف" من زاوية السرد تبينت لنا هيمنة ضمير الغائب؛ فالراوي الذي يشبه إلى حد كبير المؤرخ يستخدم ضمير الغائب في سرد أحداث الرواية كلها. أما رواية "الزيني بركات" فقد تخلصت من هيمنة ضمير الغائب، باستخدام ضمائر متعددة، بهدف اسكتناه أعماق الشخصيات، وتقديمها من زوايا متعددة. إن الراوي الشبيه بالمؤرخ في رواية "الحجاج بن يوسف" يبقى خارج السرد، باعتباره لا يشارك في الأحداث، إنه يكتفي بسرد الأحداث فقط، مما يؤدي إلى فردية الرؤية على مستوى السرد، في حين نجد أن الرؤية السردية في رواية "الزيني بركات" تتميز بالتعددية، نتيجة وجود رواة متعددين يشاركون في الأحداث.[7]

إن الرواية التاريخية والرواية المعاصرة كلتاهما توظف التاريخ، غير أن الفرق بينهما

يكمن في طريقة توظيف التاريخ، فإذا كان الخطاب التاريخي يسيطر على الرواية التاريخية، ويطبعها بطابعه، فتبدو الشخصية سطحية، وذات بعد واحد، بالإضافة إلى الفردية التي تطبع الصيغة السردية، والرؤية السردية في الرواية التاريخية، فإن الرواية المعاصرة تُخضع الخطاب التاريخي لسيطرتها، فتقدمه بطريقة جديدة، تتناسب وطبيعة الخطاب الروائي. وبناءً على ما تقدم، نوافق الدكتور سعيد يقطين على أن رواية "الزيني بركات" رواية غير تاريخية،[8] على الرغم من أن رائحة التاريخ تفوح منها على مستوى التشخيص، واللغة، والبيئتين المكانية والزمانية.

– إدخال النص التاريخي في الرواية:

ثمة طريقتان لإدخال النص التاريخي في الرواية، فإما أن يأتي النص التاريخي خارج السياق النصي، وإما أن يأتي داخل السياق النصي.

أ– خارج السياق النصي: يَرِدُ النص التاريخي خارج السياق النصي في ثلاثة أشكال، فإما أن يأتي النص التاريخي في مقدمة الرواية، وإما أن يأتي في مقدمة الأجزاء والأقسام، وإما أن يأتي في الهوامش.

– مقدمة الرواية: عمد بعض الروائيين إلى تصدير رواياتهم بنصوص تاريخية منتزعة من كتب المؤرخين، ومن هؤلاء الروائيين نذكر: إبراهيم الكوني الذي صدّر روايته "التبر"[9] بنصين، أحدهما ديني، والثاني تاريخي منتزع من كتاب "مملكة مالي" لابن فضل الله العمري، ويتحدث النص عن مملكة بلاد مفازة التبر. ومن الواضح أن النص التاريخي الموظَّف يلتقي وعنوان الرواية، وكأنه تمهيد لموضوع الرواية وأحداثها. أما الروائي سالم بن حميش فقد صدّر روايته "مجنون الحكم"[10] بجملة من أقوال المؤرخين، وكلها تصف الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي، الذي حكم مصر في القرن الرابع الهجري، بهدف تلخيص موضوع السرد الروائي، المتمثل في الكشف عن فترة حكم الحاكم بأمر الله. ولعل الدافع إلى توظيف أقوال المؤرخين وتصدير الرواية بها، بالإضافة إلى تلخيص موضوع السرد، هو توثيق المعلومات التاريخية التي يدور حولها السرد الروائي، بهدف إقناع القارئ بصدق المعلومات التاريخية المسرودة، وما يؤكد ذلك أن الكاتب وضع في آخر الرواية قائمة بالهوامش والإحالات، والكتب التاريخية التي تم التخييل Imagination في ضوئها.

– **مقدمة الأجزاء**: قسم الروائي سالم بن حميش روايته "مجنون الحكم" إلى أربعة أبواب، يتناول كل منها جانباً من شخصية الحاكم بأمر الله، وقسم كل باب إلى فصول أو أقسام، وصدر كل فصل بنص تاريخي يلخص الأحداث، ويدل على أنها تستند إلى أصول تاريخية، فقد عرض في الباب الثالث لثورة "أبي ركوة" ضد الخليفة الفاطمي "الحاكم بأمر الله"، من بدايتها إلى نهايتها، مستفيداً من المعلومات التاريخية التي سردها في تسلسل زمني متصاعد، يبدأ بظهور أبي ركوة في قبيلة "بني قرة" في بادية "برقة" في الصحراء الليبية، وإعلانه الثورة على الحاكم بأمر الله، وتوحيده القبائل بعد إبرام معاهدات الصلح بينها، وحصار برقة وفتحها، وانضمام قائد القواد "الحسين بن جوهر" إليه، ثم إلقاء القبض على أبي ركوة، وانتهاء ثورته.[11] وقد صدر الكاتب هذا الباب بمقطع من كتاب "الكامل في التاريخ" **لابن الأثير**، الذي يتحدث فيه عن ثورة أبي ركوة ضد الحاكم بأمر الله.

ب– داخل السياق النصي: يأخذ النص التاريخي داخل السياق النصي شكلين، فإما أن يحافظ على بنيته وشكله، وإما أن يتماهى بالسرد الروائي، ويصبح جزءاً منه.

المحافظة على النص التاريخي في رواية "رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف": يرد النص التاريخي في النص الروائي أحياناً كما هو في المصادر التاريخية، أي أنه يرد على شكل بنية سردية مستقلة، محصورة بين قوسين صغيرتين. وهنا لا بد من قطع السرد الروائي لإدخال النص التاريخي الموظف الذي يأتي غالباً بوساطة الشخصية الروائية التي تستشهد بنصوص المؤرخين في معرض حديثها أو حوارها مع الشخصيات الأخرى. يقول **البشير المورسكي** بطل رواية **واسيني الأعرج** "رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف": "ترامى السؤال القديم إلي ليعيد إلى ذاكرتي وجه ماريانة، أيعقل أن تكون الأرض الأخرى أردأ من محاكم التفتيش؟؟؟ السؤال لم يكن وهمياً لأني سأتذكر فيما بعد كلاماً قرأته لصاحب نفح الطيب "المقري" حين كانت أول وآخر مدينة دخلتها بعد مأساة الكهف تحترق مثل لعبة كبيرة صنعت من التبن، "وتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا منهم القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا في ضواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية

وبلادها وكذلك بتطوان وسلا، ومتيجة الجزائر...".[12]

يتخلل السرد في رواية سالم بن حميش "مجنون الحكم" مقاطع بأقلام المؤرخين، وضعها الكاتب بين قوسين صغيرتين، وأشار إليها في ملحق الهوامش في آخر الرواية، ليؤكد للقارئ أن السرد المتخيل يستند إلى حقائق تاريخية، الأمر الذي يذكر بما صنعه رواد الرواية التاريخية، أمثال جرجي زيدان، ومعروف الأرناؤوط، وغيرهما، حين حرصوا على توثيق المعلومات التاريخية الموظفة في رواياتهم.[13]

وتتفاوت المقاطع التاريخية الموظفة في رواية "مجنون الحكم"، من حيث طولها، فهي تقصر حتى تبلغ كلمة واحدة، كما في قوله: "هو: من أجمع المؤرخون على أن خلافته كانت "متضادة"، أو كلمتين كما في قوله: "سيرته عجيبة"[14] وقد تكون جملة، كما في قول الراوي: "وأفعاله مظلمة "تشيب لها النواصي"[15]، وقد تطول حتى تبلغ صفحة كاملة، كما في المقطع الذي يدل على تأجج مشاعر الخليفة الحاكم بأمر الله.[16]

2. توظيف أحداث التاريخ:

تنقسم الأحداث والوقائع التاريخية التي وظفتها الرواية العربية إلى قسمين، أولهما: أحداث السقوط، حيث يعم الظلم والاستغلال، وتنتشر الفتن على المستوى الداخلي، ويتعرض المجتمع إلى هجمات الأعداء والهزائم على المستوى الخارجي. أما ثانيهما فهو أحداث النهوض، حيث يعم العدل والمساواة بين أفراد المجتمع، ويحقق الشعب النصر على الأعداء.

أ. توظيف أحداث السقوط في رواية "رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف":

تسرد رواية واسيني الأعرج "رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" أحداث السقوط في التاريخ العربي، التي تبدأ . بحسب رأي الراوي . من الخليفة عثمان بن عفان "رض"، وتنتهي بالعصر الحديث الذي يشهد تسلط "بني كلبون" على البلاد. وتعرض رواية (رمل الماية) لإجهاضات المحاولات الثورية التي قام بها أبو ذر الغفاري وابن رشد، بالإضافة إلى سرد أحداث سقوط غرناطة، والتعذيب الذي تعرض له الناس على يد محاكم التفتيش في الأندلس، بعد سقوط الحكم العربي.

لقد وظفت رواية "رمل الماية" أحداث السقوط في التاريخ العربي لتؤكد أن

الحاضر المعيش؛ حاضر جملكية "نوميدا أمدوكال"، ليس إلا امتداداً للتاريخ العربي في جانبه المظلم؛ جانب القهر والاستغلال والظلم والتسلط. إن قامة الحاكم الرابع عثمان بن عفان رضي الله عنه- بحسب رأي الراوي- تشبه قامة ملوك هذا العصر[17]، ويقول البشير المورسكي، بعد سماعه قصة سيدنا الخضر من الراعي: "ما الذي تغير من الزمن القديم حتى الآن. ما الفرق بينه وبين محاكم التفتيش المقدس في وظيفة الموت التي يمارسها كل واحد؟؟؟ إيزابيلا كانت لا تتنفس إلا روائح الموت، فرديناند كان ينام على جلود المارانوس والمورسكيين. ما الذي تغير ؟؟؟ نفس الأقاصيص ونفس الأحجيات ونفس العقلية الخائبة. بين غرناطة ونوميدا أمدوكال خيط من الدم خطه محمد الصغير".[18]

وإذا كان أبو عبد الله، محمد الصغير، باع غرناطة للقشتاليين، لقاء جسد إيزابيلا والقشتاليات، فإن الحاضر ليس بأفضل من الماضي، وما حدث في الماضي يستمر في الحاضر، فها هي البلاد تسلم من جديد في العصر الراهن لبني كلبون، ولا يختلف الحكيم **شهريار بن المقتدر بالله**، حاكم جملكية نوميدا أمدوكال عن أجداده، فهو خائن مثلهم، وصورة طبق الأصل عنهم. إنه عميل للأجنبي، يضلل الشعب، ويزيف الحقائق. إن ما شهده الماضي من صراع على السلطة بين الآباء والأبناء والأحفاد يستمر في الحاضر، فيقتل **قمر الزمان** أباه شهريار بن المقتدر بالله، ويعتلي العرش بمساعدة الأجانب. وقد عبر البشير المورسكي عن الفترة المظلمة في التاريخ العربي بقوله: "كان يصرخ "الحلاج"، وكانوا يبيعون البلاد للأتراك والفرس. قالوا: خذوا البلاد وأعطونا الذهب والكرسي والغلمان، ولا تخلعوا عنا الحكم، لكنهم في لحظة الهوس بدؤوا يأكلون رؤوسهم الواحد تلو الآخر. المعتصم، المتوكل، المنصور قتل أباه، واعتلى الكرسي، وانتهى مسموماً، المستعين، المهدي، والمعتمد، الموفق والمعتضد والمقتدر أحد الأجداد الذي ما زال دمه يسير في وجوه هذا الزمن الأرقط. في قلب كل واحد منهم المقتدر القاهر الأهوج الذي انتهى في كيس قمامة. تركوهم يتقاتلون ليرموهم في أقرب مزبلة على أطراف بغداد وأشعلوا النار في المدينة والعباد. القلة التي صرخت في المدينة نفيت خارج السور، وقتلت في الفلوات دهساً بالجياد، أو دفنت حية، عارية، أو صلبت".[19]

وقد استحضر الكاتب- لإظهار امتداد الماضي إلى الحاضر- شخصية عاشت في الماضي، وجعلها تعيش في الحاضر، مستفيداً من قصة أهل الكهف التي اتخذها أداة فنية لتحقيق غايته.

3 . أشكال تقديم الشخصية التاريخية:

في روايتي "مجنون الحكم" و"رمل الماية"، تخضع الشخصية التاريخية الموظفة لمنطق السرد الروائي وخصائصه، فتصبح شخصية روائية كأي شخصية أخرى، ويتم تقديمها بثلاث طرائق، فإما أن تقدم بوساطة الراوي، وإما أن تقدم بوساطة الشخصيات، وإما أن تقدم بوساطة نفسها.

أ . بوساطة الراوي "استخدام ضمير الغائب":

يتولى الراوي في رواية سالم بن حميش "مجنون الحكم"، سرد الأحداث، وتقديم شخصية الحاكم بأمر الله، ويؤدي الراوي هنا دور المؤرخ، فيؤرخ لفترة تاريخية ما، ويقدم الشخصيات مستخدماً ضمير الغائب: "هو من ألهه دعاته، وقالوا بنزول الآية العاشرة من سورة الدخان بظهوره، وساروا مأذونين ومتكالبين، في سبل جذب النفوس إليه، وعقد العهود والمواثيق على الإيمان بمطلق عصمته وحلول اللاهوت في ناسوته، وظلوا بين التخفي والتجلي ينظمون المجالس والأسلاك، ويضعون الرسائل والوثائق...".[20]

يؤدي استخدام الراوي لضمير الغائب إلى تقديم الشخصية التاريخية من وجهة نظر غريبة عنها، وهذا يعني أن التجني على الحقيقة يبقى احتمالاً قائماً لدى المتلقي الذي يراوده الشك حول صحة المعلومات المقدمة عن الشخصية التاريخية، ولذا وثّق الكاتب المعلومات التاريخية، فأكثر من الهوامش والإحالات إلى المصادر التاريخية من جهة، وعمد إلى استخدام ضمير المتكلم، فأوكل إلى شخصية "الحاكم بأمر الله"، مهمة السرد من جهة أخرى.

ب . بوساطة الشخصيات "استخدام ضمير المخاطب": يستخدم ضمير المخاطب في حالتين، أولاهما رفض الراوي الإفصاح عن الكلام المتعلق بالشخصية، أو عدم قدرته على الإدلاء به، وثانيتهما كذب المتكلم، أو محاولته إخفاء شيء ما، أو عدم معرفته ما حدث له.[21]

لقد استخدم واسيني الأعرج في روايته: "رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد

الألف"، الحلم لاستحضار الشخصيات التاريخية، فدفع بطل الرواية "البشير المورسكي"، إلى الكهف، وهناك جعله ينام فترة طويلة من الزمن، حلم خلالها بأحداث السقوط في التاريخ العربي، منذ نفي أبي ذر الغفاري إلى صحراء الربذة، وحتى صلب الحلاج، وبالإضافة إلى ذلك قام البشير المورسكي بسرد ما حدث له في الأندلس حتى خروجه منها، ولجوئه إلى الكهف.

وقد استخدم الراوي ضمير المخاطب لسببين: أولهما عدم معرفة صاحب الحكاية بما حدث له، فقد ظل البشير المورسكي يسرد حكاية خروجه من الأندلس، مستخدماً ضمير المتكلم، حتى تقاذفته الأمواج، ورمته على الشاطئ فاقد الوعي، فتوقف عن السرد، وسرد له الراوي ما حدث له بعد ذلك. أما "الحلاج" فيخاطبه الراوي، موضحاً له ما يجهله: "وظللت يا شيخنا تنزف. ستون ربيعاً مرت عليك وأنت تموت وتحيا، بل قروناً[22]، نامت في ذاكرتك، وأنت تنزف، وتنزف، بقيت مصلوباً على خشبة، عروقك، مسّت الأرض، فدخلتها إلى الأعماق، دمك منذ ذلك الزمن لم يجف أبداً. بقي الصفاء يملأ عينيك".[23] وثانيهما الرغبة في سرد الحقيقة التي زيفها الوراقون ومؤرخو السلاطين والملوك، فالراوي هنا يشبه ـ كما يقول **ميشال بوتور**ـ المحقق البوليسي الذي يجمع كل المعلومات المتعلقة بشخص ما، ليواجهه بها،[24] وهذا ما فعله "البشير المورسكي"، الذي اتهم الوراقين وكتاب الدواوين، من أمثال **الطبري** بتزييف الحقيقة، ثم راح يسرد الحقيقة مستخدماً ضمير المخاطب الذي يزيل الشك، ويثبت الحقائق، ويتيح مواجهة الشخصيات التي غيبها الزمن.

4 . نماذج الشخصية التاريخية:

لا توجد أحداث من دون شخصيات تقوم بها، وقد اهتمت الرواية العربية المعاصرة بالشخصيات التاريخية في سردها لأحداث التاريخ، وتعددت نماذج الشخصيات التاريخية تبعاً لتعدد الأحداث التاريخية الموظفة، فثمة شخصيات تاريخية مثلت التحدي والمواجهة، والنضال ضد قوى الظلم والقهر، وثمة شخصيات مثلت الحاكم الضعيف، أو المستبد، وثمة شخصيات مثلت الحاكم العادل.

أ . نموذج المناضل في رواية "رمل الماية":

وظفت رواية واسيني الأعرج: "رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف"، شخصيات أبي ذر الغفاري، والحلاج، وابن رشد، وركز السرد الروائي الاهتمام على تحدي هذه الشخصيات للسلطة، ومحاولاتها إقامة العدل، وإنهاء الظلم، وتأليب الشعب ضد السلطة، وبَيَّنَ أيضا ما تعرضت له هذه الشخصيات على يدي السلطة من تعذيب ونفي. إن أبا ذر الغفاري يبدو في السرد الروائي بطلاً، وثائراً ضد السلطة، ممثلة **بمعاوية بن أبي سفيان** الذي انحرف، في رأي أبي ذر، عن جادة الصواب، والطريق القويمة، وتعاليم الإسلام، وجوهره، حين استأثر لنفسه بأموال المسلمين.(25)

ويمكن أن نفسر اهتمام الرواية العربية المعاصرة بالشخصيات التاريخية التي اختارت المواجهة والتحدي، والنضال ضد السلطة، برغبة الروائيين إسقاط تاريخ هؤلاء الثوريين على الحاضر، الذي هو أحوج ما يكون إلى شخصيات ثورية تواجه الظلم، وتقف بوجه الظالمين.

ب . نموذج الحاكم الضعيف في رواية "رمل الماية": وظفت الرواية العربية المعاصرة نموذج الحاكم الضعيف الذي ينصرف إلى اللهو والمجون، ومن هذه الشخصيات شخصية "أبي عبد الله الصغير"، آخر ملوك الأندلس، الذي حمله السرد في رواية "رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف"، تبعية ضياع الأندلس، وغروب شمس العرب عنها. وقد استحضر واسيني الأعرج، شخصية تاريخية عاشت مرحلة انهيار الحكم العربي في الأندلس، هي شخصية البشير المورسكي الذي حمّل أبا عبد الله الصغير مسؤولية ضياع الأندلس، بسبب انصرافه إلى اللهو والمجون، وتواطئه مع "فرناندز"، و"إيزابيلا"، اللذين قادا الحملة ضد المسلمين، واختياره الاستسلام، بدل المقاومة.

لم يوظف واسيني الأعرج شخصية الحاكم الضعيف، بوصفها شخصية عاشت في الماضي، بل أسقطها على الحاضر، من خلال تأكيده أن الحاكم الجديد ما هو إلا نسخة طبق الأصل عن الحاكم القديم، فالتاريخ يعيد نفسه، ويكمل دورته. إن حاكم جملكية "نوميدا أمدوكال"، وهو رمز للسلطة الجديدة، امتداد لمحمد الصغير، فقد باع البلاد والعباد لبني كلبون، وحكم الشعب بالقوة، وتسلط على الناس، كما باع محمد الصغير

غرناطة للقشتاليين: "بين غرناطة ونوميدا أمدوكال خيط من الدم خطه محمد الصغير، أبو عبد الله".[26]

5. إعادة كتابة التاريخ في رواية: "رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف":

لا يُكتب التاريخ مرة واحدة فقط، بل إن كل فئة تكتبه بطريقتها، وتفسر أحداثه بما يتناسب ومصالحها، وتتعدد المواقف تجاهه، بتعدد فئات المجتمع، والأحزاب السياسية، والمذاهب الدينية. وهكذا، فإن التاريخ يحدث مرة واحدة، ولكنه يُكتب أكثر من مرة. وقد شهدت الساحة الثقافية العربية، بدءاً من منتصف القرن الماضي محاولات لإعادة كتابة التاريخ العربي من جديد، بدافع تجاوز التخلف الحضاري، والضرورة الملحة لمساءلة الماضي[27]. يجد الباحث صدى لمحاولات إعادة كتابة التاريخ في الرواية العربية المعاصرة، بوصفها نتاج الحركة الثقافية في المجتمع من جهة، وحقلاً ثقافياً مهماً في إنتاج الوعي الثقافي من جهة أخرى.

يتنطع السرد في رواية "رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف"، بالقيام بمهمة إعادة سرد أحداث التاريخ من جديد، بسبب ما تعرض له التاريخ، من تزييف على أيدي الحكام والسلاطين الذين سخّروا أقلام المؤرخين لكتابة التاريخ بالطريقة التي تتناسب ومصالحهم. ويهاجم السرد "الوراقين"، وهم مؤرخو الحكام والملوك، ويظهر كذبهم وتزييفهم للحقيقة، طمعاً بالمال، وخوفاً من الموت والتعذيب، ويستبدل القوالين بهم: "كان الشماليون ينصبون الخيام على أطراف غرناطة، ويستولون على الحصون واحداً واحداً، وكان الورّاق البدين في زاوية النهر المضاء يخط آخر الكلمات، ويرشق الفروج القشتالية بماء الزهر، وعود النور، وبعض الكلمات البذيئة التي تثير شهوة اختصار القبلة، وتحويلها إلى متعة النوم على الصدور المليئة برغوة الحليب الأنثوي في لحظات وجده الأولى. كتب الوّراق على نهد إحداهن "كان أبو عبد الله، مدَّ الله ملكه، وأطال في عمره، لا يأكل إلا إذا تفقد الرعية، ولا ينام إلا إذا وضع رغيفه الشخصي في فم اليتيم والمحتاج. وفي أيام المحنة التي مرت بها مملكة غرناطة، يحكي عنه المحنكون، وأصحاب الحكمة، أنه نزع لحم ذراعه، وشواه لصغير كان في النزاع الأخير من حياته.... ويقال إنه ظهر في مكان ما من جبل البشرات،

يقود المقاومة الوطنية بعد أن تخلى عنه الجميع، وتركوه وحيداً".[28]

وينحو الراوي، في معرض سرده لما حدث لأبي ذر الغفاري، باللائمة على الطبري، معتبراً أنه مؤرخ السلاطين: "ماذا فعلت أيها الطبري بقلمك؟؟؟ لماذا جردته، من كل حنين وشوق لقد كنت ورّاقاً كغيرك تنجر الأقلام وتدعو الرعية إلى أن يتنبهوا إلى هذه الظاهرة المحمودة التي لا تتكرر إلا مرة واحدة كل سبعة قرون. كنت تظن يا أيها الطبري أن الزمن الذي يكذب دعواك لن يأتي أبداً. ها قد عدنا إليك نسأل مجلداتك التي كتبت بماء الذهب وجلدت بالقاطيفا والمخمل الملون بألف لون ولون ماذا فعلت بالحرف الوهاج؟؟؟.... نجرت قلمك القصبي تماماً كما كان يفعل معظم وراقي الدواوين، وكتبت وأنت تضع كيس النقود في جيبك: كان معاوية واسع البلعوم، يأكل في اليوم سبع مرات والمعدة كبيرة نعمة من الله يرغب فيها كل الملوك. يا لقلمك أيها الطبري، ما الذي شوقك إلى هذا التخريف؟؟؟ ألم يكن ممكناً أن تكون قوالاً مثلما كان أخيار السابقين؟؟ الصدق في القلب واللسان والرأس والعمر على حد السيف"[29].

ملاحظات ونتائج:

1ـ عند دراستنا لأشكال إدخال النص التاريخي في الرواية، تبين لنا أن هذا الإدخال يتم على شكلين هما: خارج السياق النصي، حيث يأتي النص التاريخي في مقدمة الرواية، أو في مقدمة الأجزاء والأقسام، أو في الهوامش، ولدى بحثنا عن علة استخدام النص التاريخي في السياق الخارجي للرواية تبين لنا أن هذا الاستخدام يأتي للتمهيد لموضوع الرواية وأحداثها، بالإضافة إلى توثيق المعلومات التاريخية التي يدور حولها السرد الروائي، بهدف إقناع القارئ بصدق المعلومات التاريخية المسرودة. أما داخل السياق النصي فيأخذ النص الموظف شكلين، فإما أن يحافظ على بنيته ويستقل عن الأصل، وإما أن يتداخل مع النص الروائي.

2 . وظف الروائيون نوعين من الأحداث التاريخية في رواياتهم، أولهما أحداث السقوط التي وُظفت لتأكيد استمرار الماضي في الحاضر، وثانيهما الفترات الإيجابية التي وُظفت بهدف المقارنة بين الماضي والحاضر، واستعادة الماضي المجيد، واستبداله بالحاضر القاتم.

3 . إن الحديث عن توظيف الشخصية التاريخية يحيلنا على أشكال ظهورها، وهي:

الاستدعاء بالاسم، والاستدعاء بالقول، والاستدعاء بالفعل. أما أشكال تقديمها فتلخص في ثلاثة أشكال هي: استخدام ضمير المتكلم، واستخدام ضمير الغائب، واستخدام ضمير المخاطب، وبينا دلالة كل شكل، فاستخدام ضمير المتكلم يقرب بين الماضي والحاضر، ويجعل الشخصية التاريخية شخصية حية، أما استخدام ضمير المخاطب فيوضح ما تجهله الشخصية التاريخية، وأما استخدام ضمير الغائب فيجعل الراوي يؤدي دور المؤرخ، ولذا حاول بعض الروائيين التخلص من هيمنة ضمير الغائب، وتخليص القارئ من الشك بصحة المعلومات عن طريق استخدام الهوامش والإحالات وذكر المصادر في آخر الرواية، كما فعل سالم بن حميش في روايته "مجنون الحكم".

4. لاحظنا أن بعض الروائيين قد حَوَّل الشخصيات التاريخية إلى شخصيات روائية عن طريق استنطاقها ودفعها إلى الكلام، والكشف عن أعماقها وسبر أغوارها، ودفعها إلى الحوار فيما بينها.

5 . إن دراستنا لنماذج الشخصيات التاريخية، أودت بنا للوقوف عند ثلاثة نماذج هي:

أ . نموذج المناضل، كشخصيات أبي ذر الغفاري والحلاج وابن رشد، وفسرنا اختيارها بحاجة الواقع إلى شخصيات ثورية تقف بوجه الظالم والظالمين.

ب . نموذج الحاكم الضعيف الذي أسقط على الحاضر لتأكيد أن الحاكم الجديد ليس إلا نسخة طبق الأصل عن الحاكم القديم.

ج . نموذج الحاكم العادل، وقد جاء توظيفه في إطار تمجيد الماضي والحنين إليه، هرباً من حاضر قاتم يفتقر إلى حاكم عادل.

هوامش:

(1) جرجي زيدان، الحجاج بن يوسف، المكتبة الأدبية، بيروت، دون تاريخ.

(2) جمال الغيطاني، الزيني بركات، ط1، وزارة الثقافة، دمشق.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، ط2، ج4، القاهرة، 1960.

(4) مفيدة الزريبي، مداد التاريخ وخطاب الرواية العربية ط1، دار الأهالي، دمشق 1994، ص 72 وما بعدها.

(5) ينظر، سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 138.

(6)مفيدة الزريبي، مداد التاريخ وخطاب الرواية العربية، ص 48.

(7) تحليل الخطاب الروائي، ص 384.

(8) المرجع السابق، ص 266.

(9)إبراهيم الكوني، التبر ط3، دار التنوير، بيروت 1992.

(10)سالم بن حميش، مجنون الحكم ط1، دار رياض الريس، لندن 1990.

(11)المصدر السابق، ص 113 وما بعدها.

(12) واسيني الأعرج، رمل الماية فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ص 41.

(13)إبراهيم السعافين، تحولات السرد، ص 35 وما بعدها.

(14)سالم بن حميش، مجنون الحكم، ص 11.

(15) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(16) م نفسه، ص 44-45.

(17)واسيني الأعرج، رمل الماية، ص 37.

(18) المصدر نفسه، ص 58-59.

(19)واسيني الأعرج، رمل الماية، ص 131.

(20)سالم بن حميش، مجنون الحكم، ص12.

(21)ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ط2، تر: فريد أنطونيوس، دار عويدات، بيروت 1982، ص 69.

(22) كذا في الأصل الصحيح قرون.

(23)واسيني الأعرج، رمل الماية، ص 141.

(24) ينظر، ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ص 69

(25) واسيني الأعرج، رمل الماية، ص 21 وما بعدها.

(26) المصدر نفسه، ص 59.

(27) ينظر، تركي الربيعي، محاولة في البحث عن معادل حضاري، بعض الملاحظات المنهجية حول إعادة كتابة تاريخنا القومي، مجلة الوحدة، الرباط، العدد 42، 1988، ص 88 وما بعدها.

(28)واسيني الأعرج، رمل الماية، ص 116.

(29) واسيني الأعرج، رمل الماية ، ص 23-24.